أثر السياق في انتقاء المفردة القرآنية: دراسة تطبيقية في ثنائية "التراب والطين" في آيات الخلق

د. شيخة خلف راشد محمد الدوسري(*)

المُلخَّص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أثر السياق في انتقاء المفردة القرآنية من خلال دراسة ثنائية التراب والطين في آيات الخلق في القرآن الكريم، تنطلق الدراسة من فرضية أن السياق القرآني يلعب دورًا محوريًّا في اختيار الألفاظ، وأن فهم هذا السياق ضروري لاستجلاء المعاني الدقيقة التي أرادها المتكلم جل وعلا.

اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي في تتبع مواضع كلمتي "التراب" و"الطين" في آيات الخلق، وتحليل السياقات التي وردتا فيها. وقد توصلت الدراسة إلى أن كلمة التراب جاءت في ستة عشر موضعًا، في حين جاءت كلمة الطين في ثلاثة عشر موضعًا، وأن لكل منهما سياقات خاصة تختلف عن الأخرى.

أظهرت النتائج أن كلمة التراب ترتبط بسياق الاستدلال على البعث وإنكار المنكرين له، وتحمل دلالات العدمية والخلو من الحياة، في حين أنّ كلمة الطين ترتبط بسياق الاستدلال على كمال القدرة الإلهية والامتنان، وتحمل دلالات النماء والحياة والتعمير، كما بينت الدراسة أن الخلق من التراب خاص بالله عز وجل، بينما يمكن إسناد الخلق من الطين للخلائق بمعنى التصوير والتشكيل.

الكلمات المفتاحية: السياق القرآني، المفردة القرآنية، التراب، الطين، آيات الخلق، الإعجاز البياني.

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية – كلية الآداب – جامعة البحرين.

The Impact of Context on Quranic Vocabulary Selection: An Applied Study of the Duality of "Dust and Clay" in Creation Verses

Abstract

This study aims to demonstrate the impact of context on Quranic vocabulary selection through examining the duality of dust and clay in creation verses in the Holy Quran. The study proceeds from the hypothesis that Quranic context plays a pivotal role in the selection of words and vocabulary, and that understanding this context is essential for elucidating the precise meanings intended by the Almighty Allah.

The study followed an inductive-analytical methodology in tracing the occurrences of the words "dust" and "clay" in creation verses and analyzing the contexts in which they appeared. The study found that the word "dust" appeared in sixteen locations, while the word "clay" appeared in thirteen locations, and that each has specific contexts that differ from the other.

The results showed that the word "dust" is associated with the context of providing evidence for resurrection and refuting those who deny it, carrying connotations of nothingness and absence of life, while the word "clay" is associated with the context of demonstrating the perfection of divine power and divine grace, carrying connotations of growth, life, and cultivation. The study also revealed that creation from dust is exclusive to Allah Almighty, while creation from clay can be attributed to created beings in the sense of forming and shaping.

Keywords: Quranic context, Quranic vocabulary, dust, clay, creation verses, rhetorical inimitability.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيمكن القول إن إيلاء السياق اهتمامًا في الدراسات اللغوية عامة، وفي الدراسات البلاغية على وجه الخصوص بوصفها الكاشفة عن مراد المتكلم وجماليات المعنى، يعد أمرًا لا غنى عنه في استجلاء المعنى الدقيق الذي أراد المتكلم إيصاله للمتلقي؛ كيلا يقع في اللبس والخلط بين المعاني، وإذا كان ذلك كذلك فيما يتعلق بالنصوص التي يبدعها البشر على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم، فإن الأمر يكون أشد ضرورة وأكثر أهمية فيما يتعلق بالنص الحكيم، كونه النص المشرع والمبين للسبيل القويم الذي يرجع إليه الجميع، للاسترشاد والاهتداء، ناهيك عن أن الخطأ في فهم هذا النص الكريم لا يضاهيه خطأ لما يترتب عليه من الضلال والإضلال.

مشكلة الدراسة

تكمن مشكلة الدراسة في الخلط الذي قد يحصل لدى المتلقي بين كلمتي "التراب" و"الطين" في آيات الخلق، وحملهما على معنى واحد في اصطلاح القرآن الكريم؛ مما قد يؤدي إلى فهم خاطئ لدقائق المعاني القرآنية. كما تسعى الدراسة للإجابة عن السؤال الرئيس: ما أثر السياق في انتقاء المفردة القرآنية؟ وما الفروق الدلالية بين استخدام كلمتي التراب والطين في آيات الخلق؟

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف، أهمها:

١. بيان أثر السياق في انتقاء المفردة القرآنية وأهميته في فهم النص الكريم.

٢. تتبع مواضع كلمتي التراب والطين في آيات الخلق وتحليل سياقاتها.

٣. الكشف عن الفروق الدلالية بين الكلمتين والحكمة من استخدام كل منهما في سياقها.

٤. إبراز اللطائف والنكت البلاغية المرتبطة بهذا الاستخدام.

٥. الرد على شبهات المشككين الذين يدعون التناقض في آيات الخلق.

أهمية الدراسة

تنبع أهمية هذه الدراسة من عدة اعتبارات:

الأهمية العلمية:

- تسهم في إثراء الدراسات القرآنية والبلاغية بتطبيق منهج دراسة السياق على النص القرآني.
- تكشف عن دقة الاستخدام القرآني للألفاظ وتنوع دلالاتها حسب السياق.
- تؤكد أهمية السياق كمنهج في فهم النصوص الدينية.

الأهمية التطبيقية:

- تفيد المفسرين والباحثين في القرآن الكريم في فهم دقائق المعاني.
- تساعد في الرد على الشبهات المثارة حول القرآن الكريم.
- تقدم نموذجًا تطبيقيًّا لدراسة الألفاظ القرآنية في ضوء سياقاتها.

الإضافة النوعية للدراسة

تقدم هذه الدراسة إضافات نوعية مهمة في مجال الدراسات القرآنية، منها:

١. الجانب المنهجي: تطبيق منهج تحليل السياق بشكل مفصل على مفردتين قرآنيتين محددتين؛ مما يقدم نموذجًا منهجيًّا للدراسات المماثلة.

٢. الجانب التحليلي: تقديم تحليل شامل لجميع مواضع الكلمتين في آيات الخلق مع ربطها بسياقاتها المختلفة.

٣. الجانب التطبيقي: الكشف عن النكت البلاغية واللطائف المعنوية التي لم تحظ بدراسة مستقلة من قبل.

٤. الجانب الدفاعي: تقديم رد علمي مؤصل على ادعاءات التناقض في آيات الخلق.

الدراسات السابقة

رغم أهمية موضوع السياق في الدراسات القرآنية، فإن الدراسات التي تناولت ثنائية التراب والطين تحديدًا قليلة ومحدودة، ومن أبرز ما وقف عليه الباحث:

الدراسة الأولى:

العنوان: "التراب والطين في القرآن الكريم – الدراسة السمنتيكية"، الباحث: أحمد مزور، الجهة: الجامعة الإسلامية الحكومية – مالانج، كلية العلوم الإنسانية والثقافة، شعبة اللغة العربية، أندونيسيا السنة: ٢٠٠٧، طبيعة الدراسة: رسالة لنيل درجة السرجانا.

منهج الدراسة وتركيزها: ركزت هذه الدراسة على الجوانب العلاماتية (السيميائية) للكلمتين، مع التركيز على:

- الجوانب الصرفية والصوتية.
- دلالة اللفظين والفرق بينهما على صعيد المعنى.
- المكونات الطبيعية للمادتين.
- مراتب الخلق وتطور المراحل في خلق الإنسان.

نقاط الاختلاف مع الدراسة الحالية:

- تطرقت إلى السياق دون ربط ذلك بإيثار لفظ دون لفظ.
- لم تركز على أثر السياق في انتقاء المفردة.
- اهتمت بالجانب السيميائي أكثر من الجانب البلاغي والسياقي.

الدراسة الثانية:

العنوان: "آيات التراب والطين في القرآن الكريم"، الباحث: خالد أحمد علاوي الجهة: كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية السنة: ٢٠٢٤، طبيعة الدراسة: أطروحة ماجستير.

ملاحظة: لم يتسن للباحث الاطلاع على هذه الدراسة لتعذر الوصول إليها.

من خلال استعراض الدراسات السابقة، يتضح وجود فجوة بحثية في دراسة أثر السياق تحديدًا في انتقاء هاتين المفردتين، والكشف عن الحكمة البلاغية من استخدام كل منهما في سياقها المناسب، وهو ما تسعى الدراسة الحالية لتغطيته.

منهج الدراسة

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على:

١. الاستقراء: تتبع جميع مواضع كلمتي التراب والطين في آيات الخلق في القرآن الكريم.

٢. التحليل: دراسة كل موضع في سياقه وتحليل دلالاته وخصائصه.

٣. المقارنة: مقارنة السياقات المختلفة للكشف عن الفروق الدلالية.

٤. الاستنتاج: استخراج النتائج والقوانين العامة من خلال التحليل والمقارنة.

هيكل الدراسة

تتكون الدراسة من مبحثين رئيسين:

المبحث الأول (النظري): السياق في اللغة والاصطلاح، ويشمل:

- مفهوم السياق لغة واصطلاحًا.
- اهتمام العلماء قديمًا وحديثًا بالسياق.
- أثر السياق في اختيار المفردات القرآنية.

المبحث الثاني (التطبيقي): الدراسة التطبيقية لمواضع التراب والطين، ويشمل:

- إحصاء مواضع كلمتي التراب والطين في آيات الخلق.
- تحليل السياقات التي وردتا فيها.

ثم أعقب ذلك ذكر أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وأهم التوصيات.

المبحث الأول

السياق في اللغة والاصطلاح

مفهوم السياق لغة واصطلاحًا:

السياق في اللغة:

يذهب أهل اللغة إلى أن السياق هو التتابع، ومن هنا قالوا: ساق الإبل وغيرها، يعني أتبعها[١] بعضًا بعضًا، وقد بين ذلك ابن منظور قائلًا: "وتساوقت الإبل تساوقًا، إذا تتابعت"[٢].

السياق في الاصطلاح:

لا يختلف المعنى كثيرًا على صعيد الاصطلاح، فالسياق يعني تتابع الكلام وتواليه، الذي يفهم منه مقصوده، وقد أشار إلى ذلك الزركشي قائلًا: "ويجب اعتبار ما دل عليه السياق، والقرائن لأن بذلك يتبين مقصود الكلام"[٣]. فالمعنى رهن بسياقه الذي قيل فيه، بل إن هناك من رأى أن السياق وسيلة توضيحية لا غنى عنها للمعنى، وهذا ما ذكره ابن دقيق العيد بقوله: "لأن السياق مبين للمجملات، مرجح لبعض المحتملات، مؤكد للواضحات".[٤]

١- انظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ج٧، ص ٣٠٥، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤.

٢- المصدر نفسه، ج٧، ص٣٠٥. وانظر أيضًا مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، ج٣، ص١١٧، تحقيق عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٩.

٣- البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ج٤، ص٢٩٠، دار الكتبي، ط١، ١٩٩٤.

٤- شرح الإلمام بأحاديث الأحكام، محمد بن علي بن وهب تقي الدين، ج١، ص ١٢٦، تحقيق محمد خلوف العبد الله، دار النوادر، دمشق، ٢٠٠٩.

كما أن السياق هو الذي يكسب المعنى خصوصيته، التي لا تتأتى له لو قطع من سياقه، وفي ذلك يقول مخلوف نقلًا عن البناني معرفًا السياق "ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه".[١]

مفهوم السياق عند المحدثين:

قد فصّل المحدَثون في الدلالة الاصطلاحية للسياق وتوسعوا في ذلك، فقد عرفه أشرف الكناني بقوله: "الكلام المتتابع إثره على إثر بعض المقصود للمتكلم والذي يلزم من فهمه فهم شيء آخر".[٢]

ولعل في تعريف الكناني تصريحًا بالخصوصية التي أشار إليها البناني في تعريفه السابق، وقد زاد الشهراني على ذلك قائلًا: "هو ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابقه أو لاحق به، أو حال المخاطب والمخاطب والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه".[٣]

أهمية السياق في فهم النصوص:

بناء على ما تقدم، نستطيع القول إن من لوازم فهم الكلام والوقوف على دقائقه هو ربطه بسياقه الذي قيل فيه، والدليل على ذلك هو أن المتكلم قد يجري الكلام نفسه في سياقين مختلفين، فيختلف المعنى فيهما اختلافًا كبيرًا، وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال الوقوف على كلمتي التراب والطين في آيات الخلق في القرآن الكريم، وكيف أن السياق يقتضي لفظًا دون لفظ وتركيبًا دون آخر؛ كي يطابق ذلك مقتضى حال المخاطب ويتبين مقصود المخاطب.

١- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد محمد مخلوف، ج١، ص ٤٩٤، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٢.

٢- الأدلة الاستثنائية عند الأصوليين، أشرف بن محمود بن عقلة الكناني، ص ١٥٤، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١، عمان.

٣- السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، سعيد بن محمد الشهراني، ص٢٦-٢٧، كرسي القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤٣٦.

اهتمام العلماء بالسياق:

من هنا كان اهتمام العلماء به قديمًا من أجل الوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم من المخاطب، وقد يعاب على السامع فهمه للخطاب مقطوعًا عن سياقه وتفويته للمراد لكنه قد يتسامح فيه، لاسيما في النصوص المكتوبة التي لم يشافهها السامع. أما فيما يتعلق بالنص الكريم فهو أمر لا ينبغي البتة؛ لأنه فهمه يترتب عليه تأصيل العقائد ومد الشرائع؛ لذلك كان اهتمام العلماء والمفسرين به اهتمامًا بالغًا تجلى ذلك مليًّا في جهدهم للكشف عن دقائق معنى النص القرآني الكريم.

أثر السياق في اختيار المفردات القرآنية:

إرهاصات مبكرة عند علماء العربية:

تنبه العرب قديمًا إلى أهمية السياق ودوره في التعبير عن المعاني بألفاظ لا يحتمل السياق إيرادها بغيرها، وقد بدأ هذا الوعي مبكرًا وازداد قوة مع ظهور المصنفات التي تعنى ببيان مواطن إعجاز القرآن على وجه خاص؛ لكونه ملمحًا من ملامح إعجاز النص القرآني العظيم، الأمر الذي استرعى اهتمامهم وجعلهم يتوقفون عنده.

موقف الجاحظ من السياق:

يبدو ذلك جليًّا عند الجاحظ في قوله: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ولكل حالة من ذلك مقامًا؛ حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[1].

فالمعاني أقدار تقدر لها كلمات بعينها تلائمها، وهذه المعاني المعبر عنها بتلك الألفاظ تناسب مقامات خاصة لا تليق بغيرها، وإلا اختل الكلام وخرج عن أسلوب البليغ.

١- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ج١، ص ٩٢، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

نظرية المواضع:

إن ما ذكره الجاحظ حول أهمية مراعاة السياق عند اختيار المفردة دفع بعض الباحثين المحدثين إلى تبني هذا القول، وإعادة نظمه تحت ما يسمى بنظرية المواضع، التي تتمحور حول نقطتين:

١. أقدار المستمعين: "الفئات التي يكون لها في الغالب معجم خاص".

٢. أقدار الحالات: "مناسبات القول".

فقد يكون المستمع واحدًا، لكن المناسبة تختلف فتختلف المعاني.[١]

واختلاف المعاني يستلزم بطبيعة الحال اختلاف الألفاظ التي يعبر بها عن تلك المعاني التي تناسب المقامات.

الجاحظ والدلالات العقلية:

قد ذهب الجاحظ في تتبعه لخواص الكلام إلى أبعد من ذلك، فذكر ما يصطلح عليه عند المناطقة بالدلالات العقلية وأثر السياق في تحديد هذه الدلالات قائلًا: "ومن الكلام كلام يذهب السامع منه إلى معاني أهله وإلى مصدر صاحبه كقوله تعالى: "وترى الناس سكارى وما هم بسكارى"، وقوله جل شأنه: "لا يموت فيها ولا يحيى"، وقوله عز من قائل: "ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت"، وسئل المفسر عن قوله: "ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا"، فقال: "ليس فيها بكرة ولا عشي"[٢].

تقييم المحدثين لجهود الجاحظ:

قد استرعت عناية الجاحظ بالسياق القرآني أحد الباحثين المحدثين، فذهب إلى أن البحث البلاغي عنده تمحور حول هذه المسألة، يقول صلاح الدين زرال: "ولفرط عناية الجاحظ بالسياق القرآني وأهميته وأثره في انتقاء الألفاظ، دار البحث البلاغي عنده حول

١- البلاغة العربية، محمد العمري، ص ٢٠١-٢٠٢، أفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، ط١، ١٩٩٩.
٢- البيان والتبيين، ج٢، ص٣٦٨.

الخطاب القرآني؛ لارتباطه بالقارئ – المتلقي الذي ينبغي أن تتحقق فيه المقاصد التي جاءت بها تلك المعاني في تلك السياقات".[1]

عبد القاهر الجرجاني وثنائية اللفظ والمعنى:

لم تتوقف العناية بالسياق عند هذا الحد، بل استمرت بعد الجاحظ، وأخذت مسارًا آخر ارتبط بقضية جدلية شغلت الأوساط اللغوية آنذاك، وهي ما يعرف بثنائية اللفظ والمعنى، ولعل أبرز من تكلم في هذه القضية الإمام عبد القاهر الجرجاني، وذلك في رده على معارضيه الذين يقولون بالفصل بين أطراف الكلام "اللفظ– المعنى" مبينًا سذاجة هذا الفهم في قطعه عن سياقه قائلًا:

"ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: هو كثير رماد القدر وعرفت أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة ويطبخ فيها القرى والضيافة"[2].

ويفهم من قول الإمام أنه لم يكن للكلام معنى في المدح لو نظر إلى اللفظ مفصولًا عن سياقه الذي قيل فيه؛ إذ ليس ثمة علاقة بين الكرم وكثرة الرماد إلا من خلال هذا الربط، فالسياق هو الذي سوغ هذا التأويل.

السياق والبلاغة عند التفتازاني:

إذا كان اهتمام الجرجاني بالسياق جاء مرتبطًا بهذا الجدل حول هذه الثنائية اللفظ والمعنى التي أفرزت في نهاية المطاف ما يعرف بنظرية النظم، فإن من البلاغيين من رأى أن السياق جزء لا يتجزأ من البلاغة على صعيد الاصطلاح، وهو الأمر الذي تنبه

١– الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صلاح الدين زرال، ص٤٤١، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨.

٢– دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤٣١، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢.

له البلاغيون حين جعلوا البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو المعنى الذي توقف عنده الإمام السعد التفتازاني وفصل القول فيه، يقول "فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ يعني أنه يقال: كلام بليغ لا من حيث إنه لفظ وصوت بل باعتبار إفادته المعنى، أي الغرض المصوغ له الكلام بالتركيب متعلق بإفادته ذلك؛ لأن البلاغة –كما مر– عبارة عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فظاهر أن اعتبار المطابقة وعدمها إنما يكون باعتبار المعاني والأغراض التي يصاغ لها الكلام لا باعتبار الألفاظ المفردة والكلم المجردة".[١]

ويمضي الإمام السعد في بيان أهمية السياق، وهو ما يعرف قديمًا بمقتضى الحال إلى تضمين الفصاحة في البلاغة وليس العكس صحيحًا، فيقول: "كل ما يطلق عليه لفظ البليغ فصيح؛ لأن الفصاحة مأخوذة من تعريف البلاغة مطلقًا ولا عكس بالمعنى اللغوي، أي ليس كل فصيح بليغًا لجواز أن يكون كلام فصيح غير مطابق لمقتضى الحال، وكذا يجوز أن يكون لأحد ملكة يقتدر بها التعبير عن مقصود فصيح من غير مطابقة لمقتضى الحال".[٢]

أهمية السياق في التفسير:

ليس للكلام بلاغة دون مراعاة للسياق الذي قيل فيه، فليس المعول عليه في فهم مراد المتكلم هو فهم معاني اللفظ، وإنما تتبع السياق الذي قيل فيه ذلك الكلام.

ولما كان السياق هو الذي يحيل إلى المعنى الذي أراده المتكلم، وكان له الأثر البالغ في فهم المعنى توقف المفسرون عنده، فأولوه عنايتهم واهتمامهم عند تفسير الآيات الكريمة، لا سيما تلك التي تنتظمها ألفاظ تتداخل معانيها وقد تلتبس على المتلقي.

نموذج تطبيقي من آيات الخلق:

من أجل ذلك وجدنا المفسر يولي السياق عناية فائقة من أجل الوقوف على المعنى الذي أريد التعبير عنه بألفاظ بعينها، لا يستقيم المعنى فيها لو عبر بما يماثلها من حيث

١– مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، ص ٢٢، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١.
٢– المصدر السابق، ص ٢٣–٢٤.

الدلالة؛ لأن السياق يأبى ذلك، وهذا يبدو جليًّا في آيات الخلق، فيذكر المولى عز وجل الخلق من تراب، في سياق الرد على من كذب بالبعث واستعظم النشر، دون الخلق من طين ردًّا عليهم على سبيل المشاكلة، فهم لم يقولوا "أإذا كنا طينًا"، وإنما قالوا "أإذا كنا ترابًا"، وذلك على سبيل الاستحالة والمنع، أي استحالة العودة وقد أصبحوا ترابًا عدمًا، فيرد القرآن عليهم مدللًا بالحجة نفسها، يقول تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب".[1]

وفي ذلك يقول الإمام ابن عاشور مبينًا طريقة القرآن الكريم الفريدة في الاستدلال وتفنيد شبه المشركين "أعاد خطاب الناس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة... فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه وهو الخلق الأول، فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كونه من ماء... قادر على إعادة خلقه بعد فنائه، ودخول المشركين بادئ ذي بدء في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق لأنهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم؛ ولذلك قيل إن الخطاب هنا خاص بهم".[2]

١- سورة الحج، الآية ٥.

٢- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، م٧، ج١٧، ص ١٩٦دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧.

المبحث الثاني

الدراسة التطبيقية لمواضع التراب والطين في آيات الخلق

جاءت كلمة التراب في القرآن الكريم في بيان مادة خلق الإنسان في ستة عشر موضعًا، في حين جاءت كلمة الطين في ثلاثة عشر موضعًا، وفي هذه الزيادة إشارة إلى العموم الذي تنتظمه كلمة التراب، وفي القلة إشارة أخرى إلى الخصوص الذي تستلزمه كلمة الطين، فالتراب أعم من الطين ومن ثم يدخل فيه ذلك الخصوص، كما أن التراب هو مرحلة أولى للخلق تليها مرحلة الطين، فهذه مراحل للخلق كما بين ذلك الإمام الشعراوي في قوله: "والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق سبحانه وتعالى يقول مرة في خلق الإنسان من تراب ومرة من ماء ومرة من طين... فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال وكلها مراحل متعددة للشيء الواحد".[١]

العلاقة بين التراب والطين في التفسير:

لا يتعارض هذا القول مع القول الآخر الذي يشير إلى أن الخلق من تراب المراد به الإشارة إلى خلق الأصل وهو آدم عليه السلام، وخلق نسله من الماء كما أخبر بذلك الذكر الحكيم؛ إذ إن هذا الأصل ينتظم الفرع كما يفهم من قول الإمام الألوسي: "أن خلقه عليه السلام [أي آدم عليه السلام] منطوٍ على خلق ذرياته انطواء إجماليًّا"[٢].

ويذكر الإمام الرازي أن الإشارة إلى الخلق من التراب هو خلق البشر جميعًا بدءًا بالأصل، فيقول في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] وفيه وجهان: أحدهما: إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب... والثاني: أن خلق الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية والأغذية إما حيوان أو نبات وغذاء

١- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، م١٦، ص ٩٧٠٢-٩٧٠٣، دار أخبار اليوم، القاهرة.
٢- روح المعاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ج ٢١، ص٤٣، تحقيق محمد أحمد الأمد، عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠.

الحيوان ينتهي قطعًا للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء فصح قوله ﴿فَإِنَّا خَلَقنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ "[1].

التمايز بين المفردتين:

على الرغم من ذلك التداخل بين هاتين المفردتين من أن إحداهما عموم للأخرى، فإن ذلك لا يقتضي تضمين إحداهما في الأخرى؛ لأن ذلك الخصوص لا يدخل فيه ذلك العموم كما هو معلوم؛ لذلك لم يصلح حمل إحداهما على الأخرى لاختلاف الدلالة ناهيك عن السياق الذي يستدعي معنى تنتظمه إحداهما لا يوجد في الأخرى.

والمتتبع لهذه المواضع يرى أن السياق الذي جاءت فيه كلمة التراب يختلف اختلافًا بينًا عن ذلك الذي جاءت فيه كلمة الطين عدا آية واحدة تشابه فيها السياقان، وسوف نبين ذلك عند الوقوف على هذين السياقين.

القسم الأول: مواضع كلمة التراب في آيات الخلق

التصنيف الأسلوبي لمواضع التراب:

إن المتتبع لهذه المواضع، يجد أن كلمة التراب انتظمها أسلوبان رئيسان:

الأسلوب الأول: الإخبار الإلهي (خمسة مواضع)

جاءت على سبيل التوكيد والحصر في المواضع التالية:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].
٢. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُم فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥].
٣. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠].

١- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازي، م ١٢، ج٢٣، ص٨، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٤.

٤. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

٥. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧].

الأسلوب الثاني: الاستفهام الإنكاري (ثمانية مواضع)

جاءت على ألسنة المنكرين في المواضع التالية:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٢. قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

٣. قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

٤. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧].

٥. قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦].

٦. قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣].

٧. قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

٨. قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]

التحليل السياقي لمواضع التراب:

السياق العام: الاستدلال على البعث

إن المتأمل لهذه المواضع يجد أن التوكيد المغلظ ينتظمها جميعًا، فالخبر جاء مؤكدًا بأكثر من مؤكد، فالحصر هو بمثابة توكيدين في الكلام، وكذلك الاستفهام الإنكاري جاء مؤكدًا بأكثر من مؤكد، وهذا التركيب يعزز من التلاؤم والانسجام بين هذه الدلالة ألا وهي التوكيد المغلظ وبين السياق الذي جاء فيه هذا الكلام.

التشابه في المعنى رغم الاختلاف في الشكل:

الكلامان وإن اختلفا لفظًا فهما متفقان في المعنى، فالخبر إنكاري لأنه مراعى فيه حال المخاطب المنكر وكذلك الاستفهام جاء إنكاريًّا تكذيبيًّا؛ لأن المتكلم يكذب ذلك الخبر، فهو خبر في المعنى.

وهذا التشابه في دلالة التركيبين هو من مقتضيات السياق؛ لأن سياق الاستدلال ينطلق من قرع الحجج، التي يبني عليها الطرفان الحقيقة التي يدعوان إليها، والتي يكون فيها المتخاصمان على درجة كبيرة من اليقين بدقة تلك الحجج وقوتها.

الاختلاف في الشكل والحكمة منه:

على الرغم من ذلك يظل الاختلاف قائمًا بين التركيبين على صعيد الشكل، فكلام المولى عز وجل خبري، وكلام المنكرين إنشائي.

وهذا ملمح آخر من ملامح ذلك الانسجام بين التركيب وبين السياق، فالخبر أليق بالمولى عز وجل وأقوى في الاحتجاج من الإنشاء؛ لأنه لا يقتضي طلبًا، أو مطلوبًا لم يتحقق عند النطق به كما هو حال الإنشاء المتمثل في الاستفهام، فالاستفهام وإن كان لفظيًّا لكنه يقتضي جوابًا أي مطلوبًا، بدليل أن المولى عز وجل أجابهم، في أكثر من موضع في القرآن الكريم، على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ (١٧) قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ (١٨)**﴾ [الصافات: ١٥-١٨].

دلالة التعجب في الاستفهام الإنكاري:

إنما جاءت هذه الإجابة كي تكون حجة عليهم يوم القيامة؛ لأن الاستفهام وإن كان يحمل على معنى الاستبعاد إلا أنه يحمل دلالة التعجب التي تقتضي الجهل بالعلة، علة ذلك الإخراج؛ لذلك أجابهم المولى عز وجل دفعًا لذلك الجهل.

وقد ألمح صاحب نظم الدرر إلى دلالة التعجب المضمن في الاستفهام قائلًا: "قالوا" أي منكرين للبعث متعجبين من أمره "أإذا متنا وكنا"، أي بالبلى بعد الموت، "ترابًا وعظامًا" نخرة، ثم أكدوا الإنكار بقولهم "أإنا لمبعوثون"، أي من باعث ما"[1].

وكذلك الإمام الشعراوي بيّن أنهم ما قالوا تلك المقالة إلا على سبيل التعجب: "وسواء كان هذا قولهم أو قول سابقيهم من الأولين، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة

١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، م ٥، ص ٢١٦-٢١٧.

المحمدية في مسألة البعث من الموت، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر".[١]

دلالة العدمية في كلمة التراب:

لما كان التعجب من أمر خارق للعادة عند المتعجب، استدلوا على ذلك الأمر الخارق الذي هو خلاف العادة في وعي المتكلم الذي يجزم باستحالته؛ لأنه لا يحيط بعلمه وهو البعث بعد العدم بالكون من تراب، الذي يلزم دلالة العدم الذي لا حياة فيه، وعلى ذلك بنوا إنكارهم واستبعادهم.

وفي استدعاء التراب لهذه الدلالة مسوغ آخر لانسجامها مع سياق إنكار البعث من جانب المنكرين على خلاف كلمة الطين، يقول الإمام ابن عاشور: "فالتراب موات لا حياة فيه وطبعه مناف لطبع الحياة؛ لأن التراب بارد يابس والحياة تقتضي حرارة ورطوبة، فمن ذلك البارد اليابس ينشأ المخلوق".[٢]

فالتراب أكثر عدمية من الطين لخلوه من أسباب الحياة بطريق الكلية؛ لذلك بنوا عليه ذلك الإنكار، يقول الإمام البقاعي في حكاية منكري البعث: "قدموه [أي التراب على العظام] لأنه أدل على مرادهم؛ لأنه أبعد عن الحياة".[٣]

الرد الإلهي على إنكار البعث:

لما كان الإنكار من جانب المنكرين يقتضي، التدليل على فساد ذلك الاحتجاج من جانب المولى عز وجل، بيّن المولى عز وجل أن ذلك الأساس الذي استند عليه الإنكار فاسد، من عدة وجوه هي:

الوجه الأول: أن قدرة الله عز وجل مطلقة لا تحد، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك الخلق والإعادة يقول المولى عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥].

١- تفسير الشعراوي، ١٦، ص ١٠١٢٠.

٢- التحرير والتنوير، م٨، ج٢١، ص٦٩-٧٠.

٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، م٦، ص٢٩٧.

الوجه الثاني: هو إقرارهم بأن ابتداء خلقهم كان من تراب، فوجه الاستبعاد لا مسوغ له.

الوجه الثالث: أن الخلق الأول في القياس البشري هو أصعب من الخلق الثاني وهو الإعادة، يقول المولى جل وعلا: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: ٢٧].

التدليل بالحجة ذاتها:

قد بين المولى عز وجل أن إنكارهم للبعث والنشر قد بني على استعظام الإعادة بعد التحول للعدم "التراب"، فجاء الاستدلال على النقيض وهو القدرة على الإعادة بعد العدم بالحجة ذاتها وهي الحياة بعد العدم في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقد أشار نفر من المفسرين[١] إلى سياق الاستدلال على صحة البعث ومدى ملاءمة كلمة التراب لهذا السياق في دلالتها على كمال القدرة في بث الحياة في العدم، كما جاءت منسجمة تمام الانسجام في جانب المنكرين الذين يجهلون الكيفية؛ لذلك تساءلوا فأجابهم المولى عز وجل، يقول الإمام الرازي: "قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث، فتفكروا في خلقتكم الأولى؛ ليعلموا أن القادر على خلقكم أولًا قادر على خلقكم ثانيًا".[٢]

خصوصية الخلق من التراب:

من الدلائل على كمال القدرة الإلهية، التفرد بالخلق من التراب، فلا يخلق من تراب إلا الله عز وجل؛ لذلك لم يسند الخلق من تراب لغيره جل وعلا، حتى على سبيل المعجزة للأنبياء، كما هو الحال في معجزة عيسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم**

١- انظر على سبيل المثال: تفسير فتح القدير، محمد علي بن محمد الشوكاني، ج٣، ص ٥١٥، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط ٢، ١٩٩٨؛ وانظر تفسير البحر المحيط، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف أبي حيان الأندلسي، م٦، ص ٤٢٨، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢- التفسير الكبير، م١٢، ج٢٣، ص٨.

مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فأسند إليه الخلق من الطين لا من التراب، وعلق ذلك كله بالمشيئة الإلهية؛ لأن الخلق حقيقة، وهو الإيجاد بعد العدم "التراب" خاص بالمولى عز وجل؛ لذلك حمل العلماء خلق عيسى عليه السلام من الطين على معنى التصوير، وفي ذلك يقول الإمام الرازي "أي أصور وأقدر، وقال تعالى: "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير"، وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير".

القسم الثاني: مواضع كلمة الطين في آيات الخلق

التصنيف الأسلوبي لمواضع الطين

المواضع في سياق الإخبار الإلهي (خمسة مواضع)

١. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

٣. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

٤. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

٥. قوله تعالى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

المواضع في سياق معجزة عيسى عليه السلام (موضعان):

١. قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

٢. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

المواضع في سياق قصة إبليس (ثلاثة مواضع):

١. قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

٢. قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

٣. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ أَءَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

التحليل السياقي لمواضع الطين:

السياق الأول: الاستدلال على كمال القدرة والامتنان

جاء الأسلوب الخبري في جميع المواضع السابقة على سبيل التوكيد المغلظ، فقد انتظمها أسلوب القصر الذي هو بمثابة توكيدين في الكلام، إضافة إلى أدوات التوكيد الأخرى في بعض المواضع.

ولما كان التوكيد دالًّا على حال المخاطب من الإنكار أو التشكيك، دل ذلك على السياق الذي جاءت فيه كلمة الطين في هذه المواضع، وهو سياق الاستدلال الذي يدحض ذلك الإنكار أو التشكيك، وقد جاءت كلمة الطين منسجمة مع ذلك السياق كونها حجة دامغة لتفنيد ذلك الإنكار.

ففي قوله تعالى: "هو الذي خلقكم من طين"، جاءت ردًّا قاطعًا على منكري البعث، وقد بين الإمام البقاعي انسجام كلمة الطين في هذا السياق، سياق الاستدلال على حقيقة البعث؛ لتأديتها معنى لا يوجد في كلمة التراب، يقول: "ولما كانوا يستبعدون البعث لصيرورة الأموات ترابًا واختلاط تراب الكل بعضه ببعض وبتراب الأرض، فيتعذر التمييز، وكان تمييز الطين لشدة اختلاط أجزائه بالماء أعسر من تمييز التراب، قال "من طين"، أي مميز طينة كل منكم"[١].

١- نظم الدرر، م٢، ص٥٨٢.

دلالة الامتنان في استخدام الطين:

أما قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين"، وقوله جل وعلا: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين"، فقد انتظمهما سياق الاستدلال على كمال القدرة الإلهية، وقد أدمج في ذلك سياق الامتنان بخلق الإنسان من طين، وتأتي كلمة الطين لتبين شرف أصل الإنسان الذي خلق منه، لتضمنه معنى النماء، فمن الطين تنبت المزروعات التي فيها حياة الخلائق، وفي ذلك رد ضمني على إبليس، وبيان ركاكة نظره وسوء تقديره، عندما احتج بالامتناع عن السجود بدنو أصل آدم وعلو أصله، فجاءت كلمة الطين حجة على الضد، يقول الإمام الرازي: "وقد غلط غلطًا فاحشًا، فإن الإيجاد خير من الإعدام بلا نزاع، والنار سبب الإعدام والمحق لما خالطته والطين سبب النماء والتربية لما خالطه"، ومن هنا نرى مدى انسجام كلمة الطين دون التراب لقربها من معاني الحياة وبُعدها عن معاني العدمية المتمثلة في كلمة التراب.

وعن هذا الإدماج بين السياقين يقول الإمام ابن عاشور: "وهذا شروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره... ويتضمن ذلك امتنانًا على الناس بأنهم أخرجهم من مهانة العدم إلى شرف الوجود".[١]

السياق الثاني: التصوير والتشكيل في معجزة عيسى

أما فيما يتعلق بإسناد الخلق من الطين لعيسى عليه السلام بمشيئة الله تعالى، فقد كان لمجيء كلمة الطين دلالة لا تؤديها كلمة التراب هنا وهي التصوير والتمثيل، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: "أي أصور وأقدر، وقال تعالى: "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير"، وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير"، أي مجرد الخلق بمعنى التصوير والتهيئة لا إيجاد الحياة في ذلك المعدوم.[٢]

فالخلق بمعنى التصوير مسندًا إلى الخلائق بمعنى التمثيل والتصوير تناسبه كلمة الطين لما فيها من معاني التطويع لذلك، ومن ثم لم يكن الخلق من تراب يناسب ذلك المعنى.

١- التحرير والتنوير، م٨، ج١٨، ص٢٢.

٢- التفسير الكبير، م٤، ج٨، ص٤٩-٥٠.

السياق الثالث: الوعظ والإرشاد في قصة إبليس

أما في حكاية المولى عز وجل لخلق البشر من طين، وأمر الملائكة بالسجود له، وامتثال الملائكة للأمر الإلهي وامتناع إبليس عن السجود، فقد كان مجيء كلمة الطين بوصفه مادة الخلق منسجمًا مع سياق الوعظ والإرشاد، وقد ألمح إلى تلك النكتة البلاغية الإمام الرازي، وهي العمومية التي تفهم من كلمة الطين بقوله: "فلما قال: "إني خالق بشرًا من طين"، فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات [البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية] إنما أخلقه من الطين"[1]، ثم أردف موضحًا النكتة من ذكر الطين هنا دون التراب قائلًا: "أن المادة البعيدة هي التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون وأقرب منه الصلصال، فثبت أنه لا منافاة بين الكل".[2]

١- المصدر السابق، م ١٣، ج٢٦، ص١٩٨.

٢- المصدر السابق، م١٣، ج٢٦، ص١٩٨.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة في آيات الخلق وما تحمله من دقائق المعاني ولطائف البيان، يطيب لي أن أختتم هذه الدراسة بما توصلت إليه من خلال تتبع كلمتي "التراب والطين" في سياقاتهما القرآنية المختلفة.

لقد كان من أبرز ما كشفت عنه هذه الدراسة أن كل لفظة في القرآن الكريم لها موضعها الذي لا يصلح لغيرها، وأن السياق هو الذي يحدد اختيار المفردة دون سواها، فليس الأمر مجرد ترادف أو تنويع في التعبير، وإنما هي حكمة بالغة ودقة متناهية في وضع كل كلمة في مكانها الأنسب.

فكلمة "التراب" جاءت في سياقات الاستدلال على البعث والرد على منكريه، تحمل في طياتها معاني العدم والموات، لتكون بذلك أدل على عظمة القدرة الإلهية في إحياء ما لا حياة فيه. أما كلمة "الطين" فقد تنوعت سياقاتها بين الامتنان والتكريم، والتصوير والتشكيل، والوعظ والإرشاد، وفي كل سياق تحمل من المعاني ما يناسبه.

وإن مما يزيد المؤمن يقينًا بإعجاز هذا الكتاب العظيم أن يقف على مثل هذه الدقائق التي تشهد بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من صنع البشر، وأن كل محاولة للطعن فيه أو ادعاء التناقض في آياته إنما تنم عن جهل بأسرار العربية وخفايا البيان القرآني.

ولعل أهم ما تدعو إليه هذه الدراسة هو ضرورة العناية بدراسة السياق القرآني وعدم الاكتفاء بالمعاني المعجمية للألفاظ، فالقرآن كتاب هداية وإعجاز، وكل آية فيه تحتاج إلى تدبر وتأمل في سياقها وما يحيط بها من القرائن.

وختامًا، فإن هذا العمل المتواضع ليس إلا قطرة في بحر من العلوم القرآنية التي لا تنضب معينها، وإن الباحث ليشعر بعجزه أمام عظمة هذا الكتاب الكريم وما يحتويه من كنوز لا تفنى. نسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العلم والباحثين في خدمة كتابه المجيد، وأن يزيدنا فهمًا وتدبرًا لآياته الحكيمة، إنه سميع مجيب.

النتائج والتوصيات

بعد هذا الاستقراء التحليلي للآيات القرآنية المتعلقة بثنائية التراب والطين في الخلق، توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة:

١. ضرورة الوقوف عند السياق لاستجلاء المعاني الدقيقة التي جاءت فيها المفردات القرآنية وبيان الفروق بينها وبين غيرها من المفردات الأخرى.

٢. شمولية أثر السياق حيث لا يتوقف دوره عند انتقاء المفردة فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى جميع العناصر المحيطة به كطبيعة المخاطب والمخاطب وتطويع التركيب بما يتطابق مع مقتضى حال الاثنين.

٣. كشف المعاني الضمنية حيث يساعد السياق على كشف المعاني الضمنية للمفردة المعبر بها التي أراد المتكلم إيصالها للسامع، والتي لا يمكن الوصول إليها بالدلالة اللغوية وحدها.

٤. خصوصية الخلق من التراب بالله عز وجل؛ إذ لم يأت الخلق من تراب مسندًا لغير الله عز وجل، وهذا يدل على أن دلالة الخلق هنا تتجاوز معنى التصوير والتقدير إلى دلالة الإيجاد وبث الحياة في المعدوم.

٥. ارتباط التراب بسياق البعث حيث جاءت كلمة التراب دون كلمة الطين في سياق إنكار البعث من قبل المنكرين، والاستدلال على أحقيته من قبل المولى جل وعلا؛ لانتظام معنى العدمية فيها والخلو من معاني الحياة.

٦. ارتباط الطين بسياق القدرة والامتنان؛ حيث جاءت كلمة الطين في سياق الاستدلال على القدرة المطلقة لله عز وجل والامتنان؛ لما تتضمنه من معاني النماء والحياة والتعمير.

٧. التنوع في الدلالات حسب السياق، فالطين يحمل دلالات متنوعة: النماء والحياة في سياق الامتنان، والتطويع والتشكيل في سياق معجزة عيسى، والتكريم في سياق قصة آدم.

٨. الدقة في الاستخدام القرآني للألفاظ؛ حيث لا يمكن استبدال إحدى الكلمتين بالأخرى دون إخلال بالمعنى المراد والسياق المقصود.

٩. دحض ادعاءات التناقض في آيات الخلق، فدراسة السياق كفيلة بالرد على من يدعي التناقض في القرآن بزعم أن الخلق يأتي تارة من تراب وتارة من طين.

١٠. إظهار الإعجاز البياني في دقة استخدام الألفاظ وتناسبها مع سياقاتها؛ مما يعد وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

التوصيات

التوصيات الأكاديمية:

١. توسيع دراسات السياق القرآني بتطبيق هذا المنهج على مفردات قرآنية أخرى متشابهة في الظاهر مختلفة في السياق.

٢. إعداد دراسات مقارنة تتناول الألفاظ المتقاربة في القرآن الكريم وأثر السياق في انتقائها.

٣. تطوير مناهج تدريس التفسير لتشمل منهج دراسة السياق كأساس في فهم النص القرآني.

التوصيات التطبيقية:

٤. إدراج دراسات السياق في برامج إعداد المفسرين والباحثين في القرآن الكريم.

٥. إنشاء مراكز بحثية متخصصة في دراسة السياق القرآني وأثره في فهم النص الكريم.

٦. إعداد معاجم سياقية للألفاظ القرآنية تبين استخداماتها المختلفة حسب السياق.

التوصيات الدعوية:

٧. الاستفادة من هذه الدراسات في الرد على شبهات المشككين والطاعنين في القرآن الكريم.

٨. تبسيط هذه المعاني لغير المتخصصين من خلال وسائل الإعلام والمنابر المختلفة.

٩. ترجمة هذه البحوث إلى لغات أخرى لتعريف غير الناطقين بالعربية بدقة النص القرآني وإعجازه.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- القرآن الكريم.

ثانيًا: المراجع:

أ- المراجع الأساسية:

١- **أبو الحسين، أحمد بن فارس.** *مقاييس اللغة*. تحقيق عبد السلام هارون، مصر، مطبعة البابي، الطبعة الثانية.

٢- **ابن دقيق العيد، محمد بن علي بن وهب تقي الدين.** *شرح الإلمام بأحاديث الأحكام*. تحقيق محمد خلوف العبد الله. دمشق: دار النوادر.

٣- **الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر.** *البحر المحيط في أصول الفقه*. دار الكتبي، الطبعة الأولى.

٤- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري.** *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة.

٥- **مخلوف، محمد محمد.** *شجرة النّور الزكية في طبقات المالكية*. بيروت: دار الكتب العلمية.

ب- كتب التفسير:

٦- **الألوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي.** *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. تحقيق محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.

٧- **البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر.** *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة.

٨- **أبي حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي.** *تفسير البحر المحيط*. تحقيق عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٩- **الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين.** *التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب*. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.

١٠- **الشعراوي، محمد متولي.** *تفسير الشعراوي*. القاهرة: أخبار اليوم، قطاع الثقافة.

١١- **الشوكاني، محمد علي بن محمد.** فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دمشق، دار الكلم الطيب، الطبعة الثانية.

١٢- **ابن عاشور، محمد الطاهر.** *تفسير التحرير والتنوير*. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.

ج- كتب البلاغة واللغة:

١٣- **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.** *البيان والتبيين*. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الجيل.

١٤- **الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد.** *دلائل الإعجاز*. قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني، الطبعة الثالثة.

١٥- **التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر.** *مختصر المعاني*. بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى.

د- الدراسات المعاصرة:

١٦- **الكناني، أشرف بن محمود بن عقلة.** *الأدلة الاستثنائية عند الأصوليين*. عمان: الجامعة الأردنية.

١٧- **الشهراني، سعيد بن محمد.** *السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة*. الرياض: كرسي القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى.

١٨- **العمري، محمد.** *البلاغة العربية أصولها وامتدادها*. المغرب–لبنان: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى.

١٩- **زرال، صلاح الدين.** *الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري*. الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى.